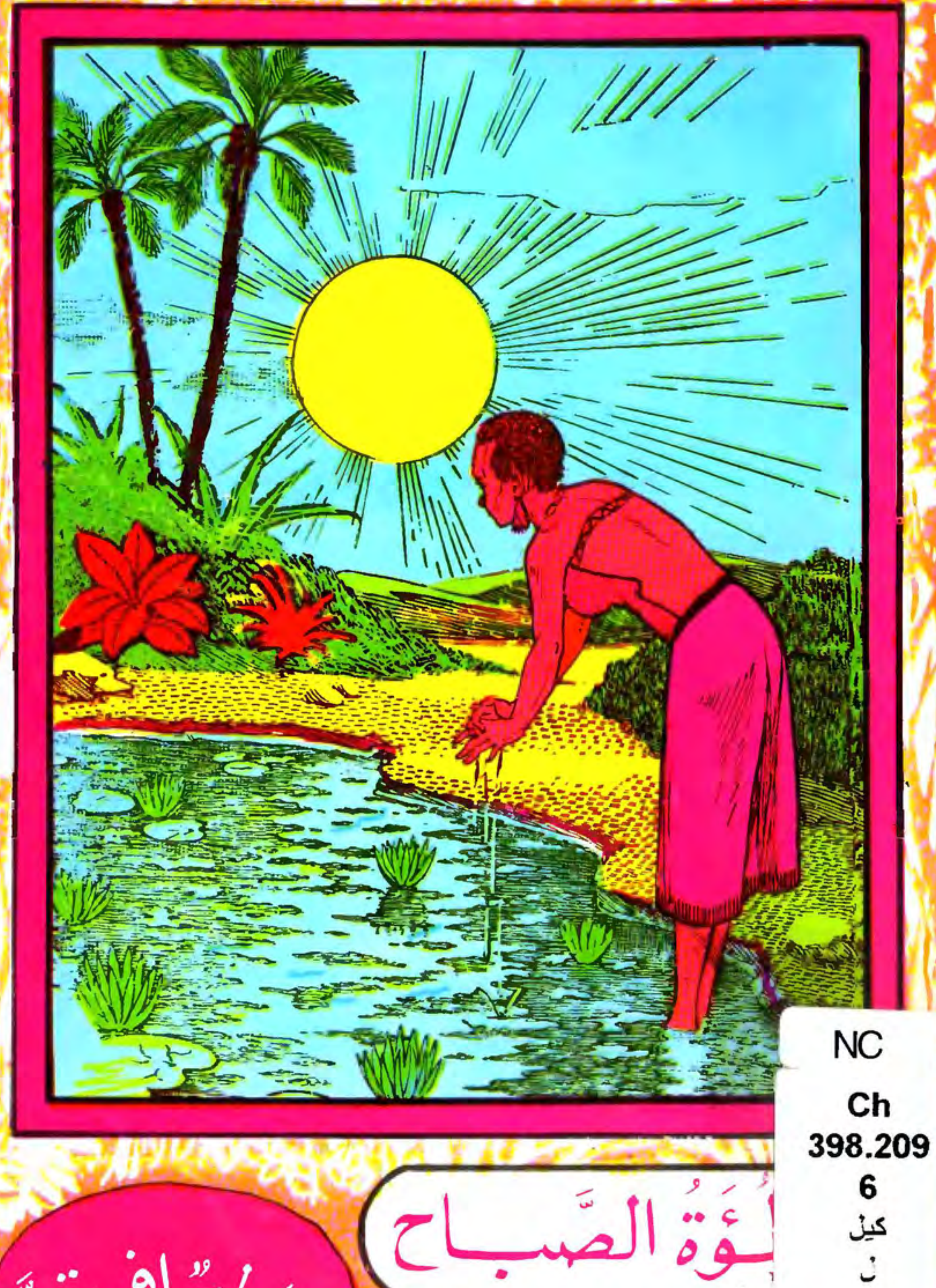


لُؤَةُ الصَّباح

لم :
كامل كيلاني

أساطيرُ إفريقيَّة



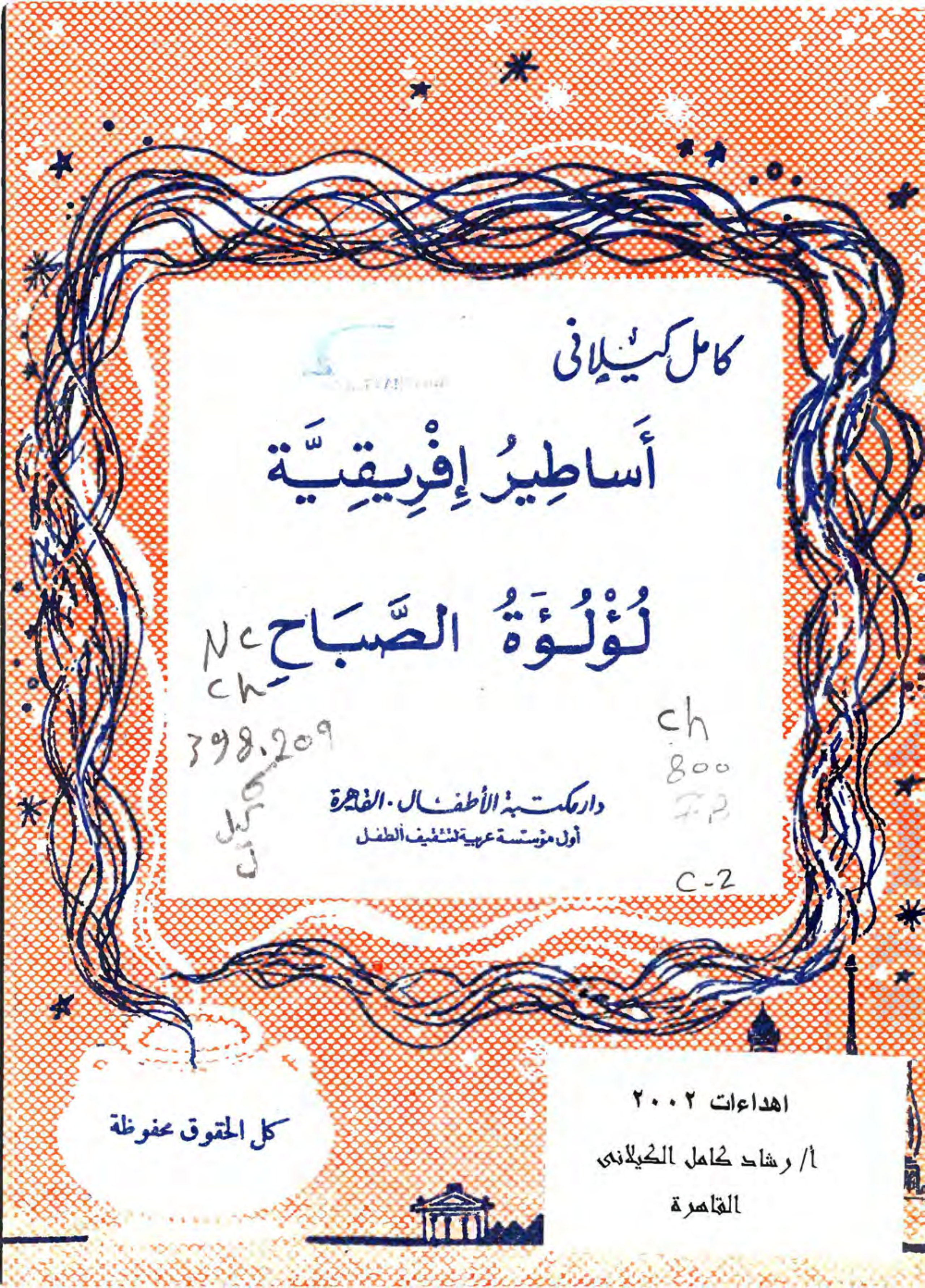
أساطيرُ إفريقيَّة

بقلم :
كامل كيلانى

كان اهتمامُ «كامل كيلانى» بالأساطيرِ بالغَ الغايةِ ،
إذ اعتبر العالَمَ الأسطوريَّ مورِداً عذبًا لاجتذابِ عقليّةِ
الناشىء الغَضَّة ، وإمدادِها بما يملؤُها أُنسًا وانشراحًا .
والجديدُ فيما اتَّجه إليه «كامل كيلانى» : أنه لم يقتصرْ
على الأساطيرِ الشرقيةِ فى آدابِ الهندِ والفُرْسِ وغيرِها..
ولم يقتصرْ على الأساطيرِ الغربيةِ فى اللُّغاتِ القديمةِ أو الحديثةِ ،
ولم يكْتَفِ كذلك بأن يَمْتاحَ من الأساطيرِ الغربيةِ ما يَمْتاحُ ،
بل إنه شقَّ أفقًا جديداً ليُصيبَ مَرامًا بعيدا ،
إذ توغَّل فى « إفريقيَّةَ » كما يتوغَّلُ الرَّحَّالةُ ؛
ولكن توغُّلَه كان ليتصيَّدَ الأفكارَ والصُّوَرَ
التى تحفَلُ بها الأساطيرُ الإفريقيَّة .
ولا شكَّ أن صنيعَه هذا يُعْتَبرُ مَسْلكًا جديدا
لم يسبِقْه إليه سابِقٌ فى اللغة العربية لِعالَمِ الأطفال ،
وفى هٰذه المجموعةِ نماذِجُ من تِلْكَ الأساطيرِ » .

محمد شوقى أمين

عضو مجمع اللغة العربية


كامل كيلانى
أَساطِيرُ إِفْرِيقِيَّة
لُؤْلُؤَةُ الصَّباحِ
دار مكتبة الأطفال . القاهرة
أول مؤسسة عربية لتثقيف الطفل
كل الحقوق محفوظة
اهداءات ٢٠٠٢
أ/ رشاد كامل الكيلانى
القاهرة

١ — النَّهْرُ الْمُظْلِمُ

فِي قَدِيمِ الزَّمانِ ، وَسالِفِ الْعَصْرِ وَالْأَوانِ ، كانَتْ هُناكَ فَتاةٌ سَمْراءُ ، وَجْهُها حَسَنُ الْمَلامِحِ ، وَقامَتُها فارِعَةُ الطُّولِ ، وَرُوحُها خَفِيفَةٌ مُؤْنِسَةٌ . وَقَدْ سَمَّوْها مُنْذُ وُلِدَتْ : « لُؤْلُؤَةَ الصَّباحِ » .

عاشَتِ الْفَتاةُ « لُؤْلُؤَةُ الصَّباحِ » فِي رِعايَةِ أَخَوَيْنِ لَها ، أَحَدُهُما اسْمُهُ : « مَرْجانُ » ، والآخَرُ اسْمُهُ : « كَهْرَمانُ » .

وَكانَ مُقامُ تِلْكَ الْأُسْرَةِ الطَّيِّبَةِ فِي كُوخٍ صَغِيرٍ ، قَرِيبٍ مِنْ أَحَدِ الْأَنْهارِ الْكَبِيرَةِ ، فِي قارَّةِ « إِفْرِيقِيَّةَ » الْمَعْرُوفَةِ .

وَلَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ النَّهْرُ نَهْرًا مُتَّسِعَ الْجَوانِبِ ، بَلْ هُوَ نَهْرٌ ضَيِّقُ الْأَنْحاءِ ، مُظْلِمُ الْأَرْجاءِ . وَكانَتْ تُحِيطُ بِهِ الْغاباتُ الْمُوحِشَةُ مِنْ جَمِيعِ نَواحِيهِ ، فَتَكادُ تَحْجُبُهُ عَنِ الْعُيُونِ وَتُخْفِيهِ .

كانَتِ الشَّمْسُ تَسْطَعُ فَوْقَهُ ، وَلٰكِنَّ الْأَشْجارَ الْعالِيَةَ الْمُتَزاحِمَةَ ، تَكادُ تَمْنَعُ ضَوْءَ الشَّمْسِ أَنْ يَنْفُذَ إِلَى صَفْحَتِهِ .

فِي هٰذا النَّهْرِ ، كانَتِ التَّماسِيحُ تَمْرَحُ ، وَهِيَ آمِنَةٌ مُطْمَئِنَّةٌ بِما يَسُودُهُ ، مِنْ هُدُوءٍ وَسُكُونٍ ؛ فَلَمْ يَكُنْ يَؤُمُّ هٰذا النَّهْرَ إِلَّا قَلِيلٌ مِنَ النَّاسِ ، فِي بَعْضِ الْأَحْيانِ ، يَمُرُّونَ بِتِلْكَ الْبُقْعَةِ ، وَهُمْ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى الْجِهَةِ الَّتِي يَقْصِدُونَها .



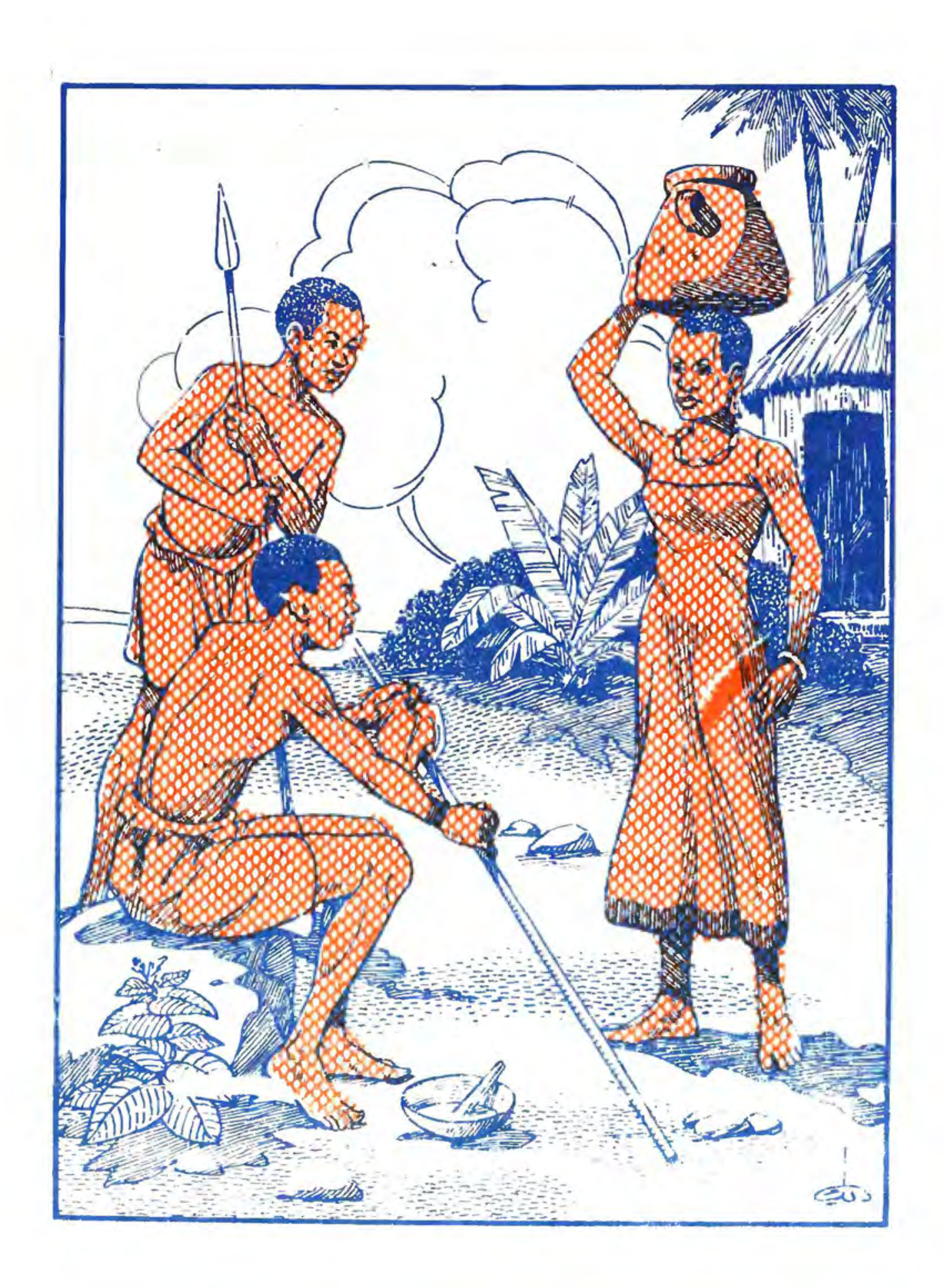
٢ — الْوَطَنُ الْعَزِيزُ

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ النَّهْرَ يَغْشاهُ الظَّلامُ ، وَأَنَّ الشَّجَرَ يَنْمُو عَلَى شاطِئِهِ دُونَ نِظامٍ ، كانَتْ « لُؤْلُؤَةُ الصَّباحِ » لا تَكادُ تَشْعُرُ بِأَنَّ الْحَياةَ بِجانِبِ هٰذا النَّهْرِ حَياةٌ غَيْرُ طَيِّبَةٍ . وَلَمْ تَكُنْ تَضْجَرُ بِالْمَناظِرِ الْمُوحِشَةِ مِنْ حَوالَيْها ؛ بَلْ كانَتْ تُحِسُّ السَّعادَةَ كُلَّها وَهِيَ تُقِيمُ فِي هٰذِهِ الْبُقْعَةِ الْخالِيَةِ مِنَ الصَّخَبِ وَالضَّوْضاءِ .

لَقَدْ وُلِدَتْ « لُؤْلُؤَةُ الصَّباحِ » فِي هٰذِهِ النَّاحِيَةِ ، وَنَشَأَتْ فِي ذٰلِكَ الْجَوِّ ؛ فَتَعَوَّدَتْ نَفْسُها ما وَقَعَتْ عَلَيْهِ عَيْنُها مِنَ الْمَناظِرِ ، وَأَصْبَحَتْ تَأْلَفُ ذٰلِكَ كُلَّهُ ، وَتَجِدُ فِيهِ عِيشَةً راضِيَةً .

اِمْتَلَأَتْ نَفْسُ « لُؤْلُؤَةِ الصَّباحِ » بِحُبِّ الْأَرْضِ الَّتِي قَضَتْ فِيها طُفُولَتَها وَصِباها ، وَرَأَتْ فِيها جَمالًا ، وَأَحَسَّتْ فِيها بِالسَّعادَةِ ؛ وَذٰلِكَ لِأَنَّ وَطَنَ الْإِنْسانِ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ، كَيْفَما كانَتِ الْحَياةُ فِيهِ . وَالْإِنْسانُ لا يَرْضَى بِوَطَنِهِ بَدِيلًا ، وَإِنْ كانَ الْبَدِيلُ أَفْضَلَ مِنْهُ .

حَقًّا ، كانَتْ « لُؤْلُؤَةُ الصَّباحِ » فَتاةً طَيِّبَةً ، نَبِيلَةَ الْمَشاعِرِ ، كَرِيمَةَ الْعَواطِفِ . وَمَنْ طُبِعَتْ نَفْسُهُ عَلَى هٰذِهِ الصِّفاتِ الْحَمِيدَةِ ، يَرْتَبِطُ بِوَطَنِهِ ، كَما يَرْتَبِطُ بِأُسْرَتِهِ ، وَيُحِسُّ بِأَنَّ وَطَنَهُ جُزْءٌ مِنْهُ ، أَوْ أَنَّهُ هُوَ جُزْءٌ مِنْ وَطَنِهِ ، لا يَنْفَصِلُ عَنْهُ .



٣ — رِحْلَةُ الأَخَوَيْنِ

وَكانَ أَخَواها : « مَرْجانُ » وَ « كَهْرَمانُ » قَدْ مَرَنَ كُلٌّ مِنْهُما عَلَى الصَّيْدِ وَالْقَنْصِ ، فِي الْبَرارِي وَالأَدْغالِ ؛ وَلٰكِنَّهُما كانا يَغْدُوَانِ فِي الصَّباحِ وَيَرُوحانِ فِي الْمَساءِ ، أَوْ يَخْرُجانِ فِي جُنْحِ اللَّيْلِ وَيَعُودانِ قَبْلَ مَشْرِقِ الشَّمْسِ ؛ يَفْعَلانِ ذٰلِكَ طَوْعًا لِما يُرِيدانِ أَنْ يَقْتَنِصاهُ أَوْ يَصْطاداهُ . فَمِنَ الصَّيْدِ ما يُسْتَطاعُ الْوُصُولُ إِلَيْهِ فِي وَضَحِ النَّهارِ ، وَمِنَ الصَّيْدِ ما لا يُمْكِنُ الْحُصُولُ عَلَيْهِ إِلَّا تَحْتَ أَسْتارِ الظَّلامِ .

وَفِي إِحْدَى اللَّيالِي ، جَلَسَ الأَخَوانِ إِلَى أُخْتِهِما « لُؤْلُؤَةِ الصَّباحِ » لِيُخْبِراها بِأَنَّهُما قَدِ اعْتَزَما أَنْ يَقُوما مَعًا بِرِحْلَةِ صَيْدٍ ، تَسْتَغْرِقُ بِضْعَةَ أَيَّامٍ وَبِضْعَ لَيالٍ ، وَأَنَّهُما سَيُغادِرانِ الدَّارَ فِي مَطْلَعِ الْفَجْرِ ، لِلْقِيامِ بِتِلْكَ الرِّحْلَةِ الَّتِي دَبَّرا أَمْرَها ، مُنْذُ وَقْتٍ قَرِيبٍ .

أَحَسَّتْ « لُؤْلُؤَةُ الصَّباحِ » بِأَلَمٍ حِينَ سَمِعَتْ هٰذا الْخَبَرَ ، وَطَفَرَتْ مِنْ عَيْنَيْها الدُّمُوعُ ، وَلَمْ تَسْتَطِعْ مَنْعَ نَفْسِها مِنَ الْبُكاءِ .

قالَ لَها أَخُوها « مَرْجانُ » : « تَجَلَّدِي أَيَّتُها الأُخْتُ الْعَزِيزَةُ . »

وَقالَ لَها أَخُوها « كَهْرَمانُ » : « لا تَجْزَعِي لِغَيْبَتِنا . »

قالَتْ لَهُما : « كَيْفَ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرَى الْقَمَرَ يَسْطَعُ فِي السَّماءِ مَرَّاتٍ ، فِي لَيالٍ مُتَوالِياتٍ ، دُونَ أَنْ أَراكُما مَعِي فِي الدَّارِ ؟ ! »

٤ — قِصَّةُ النَّهْرِ الْفِضِّيِّ

مالَتْ « لُؤْلُؤَةُ الصَّباحِ » عَلَى أَخَوَيْها ، تَقُولُ لَهُما ، مُسْتَعْطِفَةً :

« لِماذا لا تَجْعَلانِي أُشارِكُكُما فِي رِحْلَتِكُما الَّتِي سَتَقُومانِ بِها ؟ »

قالَ لَها « مَرْجانُ » : « ماذا لَكِ مِنْ عَمَلٍ فِي هٰذِهِ الرِّحْلَةِ ؟ »

وَقالَ لَها « كَهْرَمانُ » : « هَلْ نَشْتَغِلُ بِحِمايَتِكِ ، أَوْ بِأَمْرِنا ؟ »

قالَتْ لَهُما « لُؤْلُؤَةُ الصَّباحِ » فِي لَهْجَةِ الْمُتَوَسِّلَةِ الضَّارِعَةِ :

« سَأَنْتَهِزُ فُرْصَةَ هٰذِهِ الرِّحْلَةِ ، لِأَسْأَلَ عَنْ نَهْرٍ فِضِّيٍّ حَدَّثَتْنِي فِي شَأْنِهِ الْعَجُوزُ « أُمُّ جَعْفَرٍ » الَّتِي تُقِيمُ غَيْرَ بَعِيدٍ مِنَّا . »

قالَ « كَهْرَمانُ » : « لَعَلَّكِ يا أُخْتاهُ تَقْصِدِينَ قِصَّةَ ذٰلِكَ النَّهْرِ الَّذِي يَغْتَسِلُ فِيهِ الْإِنْسانُ الْأَسْمَرُ ، فَإِذا هُوَ ناصِعُ الْبَياضِ ! »

قالَتْ « لُؤْلُؤَةُ الصَّباحِ » : « نَعَمْ ، لَقَدْ حَدَّثَتْنِي « أُمُّ جَعْفَرٍ » أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ كانُوا يَمُرُّونَ بِذٰلِكَ النَّهْرِ الْحافِلِ بِالْأَسْرارِ ، وَهُمْ كَما وَلَدَتْهُمْ أُمَّهاتُهُمْ : سُمْرُ الْأَجْسامِ . وَإِذا عَبَرُوه إِلَى الشَّاطِئِ الْآخَرِ ، وَجَدُوا ماءَهُ قَدْ غَسَلَ أَجْسادَهُمْ ، فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ ! »

قالَ الْأَخُ « مَرْجانُ » : « إِنَّ الْعَجُوزَ « أُمَّ جَعْفَرٍ » صُنْدُوقٌ مَمْلُوءٌ بِأَساطِيرَ وَخُرافاتٍ ، لا يَكادُ يُصَدِّقُها عاقِلٌ ذَكِيٌّ . »

وَقالَ الْأَخُ « كَهْرَمانُ » . « لا تَنْخَدِعِي بِما قالَتْهُ لَكِ الْعَجُوزُ . »

٥ — نَشِيدُ الصَّباحِ

ما زالَ الأَخَوانِ « مَرْجانُ » و « كَهْرَمانُ » بِأُخْتِهِما ، حَتَّى أَقْنَعاها بِأَنْ تَبْقَى فِي الْبُقْعَةِ ، وَأَنْ تَعْدِلَ عَنْ رَغْبَتِها الشَّدِيدَةِ فِي مُرَافَقَتِهِما خِلالَ رِحْلَةِ الصَّيْدِ .. وَلَمْ يَدَّخِرا وُسْعًا فِي إِفْهامِها أَنَّ قِصَّةَ « النَّهْرِ الْفِضِّيِّ » قِصَّةٌ مِنَ الأَساطِيرِ الَّتِي يَحْلُو لِبَعْضِ النَّاسِ أَنْ يَخْتَرِعُوها ، وأَنْ يَخْدَعُوا بِها بَعْضَ الْعُقُولِ السَّاذَجَةِ ، وَإِنْ كانَتْ بَعِيدَةً عَنِ الْحَقِيقَةِ ، لا وُجُودَ لَها فِي الْواقِعِ الْمَشْهُودِ .

وَقالَ « مَرْجانُ » لِأَخِيهِ « كَهْرَمانَ » : « هَلْ تَظُنُّ أَنَّ أُخْتَنا « لُؤْلُؤَةَ الصَّباحِ » قَدِ اقْتَنَعَتْ حَقًّا بِما قُلْناهُ لَها ، وَأَنَّ فِكْرَها قَدْ ذَهَبَ عَنْهُ خَيالُ ذٰلِكَ « النَّهْرِ الْفِضِّيِّ » الْمَوْهُومِ ؟ »

قالَ « كَهْرَمانُ » لِأَخِيهِ : « أَرْجُو ذٰلِكَ . فَإِنَّ « لُؤْلُؤَةَ الصَّباحِ » ذَكِيَّةٌ فَطِنَةٌ ، وَإِذا تَأَثَّرَتْ بَعْضَ التَّأَثُّرِ بِما تَسْمَعُ مِنَ الْقِصَصِ وَالْخُرافاتِ ، فَإِنَّها سُرْعانَ ما تَعُودُ إِلَى الصَّوابِ . »

وَنامَ الأَخَوانِ فَتْرَةً مِنَ اللَّيْلِ ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ كِلاهُما يَتَأَهَّبانِ لِرِحْلَةِ الصَّيْدِ . وَكانَ مِنْ عادَةِ « مَرْجانَ » أَنْ يَصْقُلَ رُمْحَهُ بِدِهانٍ يَجْعَلُ حَدَّهُ مُرْهَفًا ، وَأَنْ يُنْشِدَ الأُرْجُوزَةَ التَّالِيَةَ ، يُناجِي بِها الرُّمْحَ ، وَهُوَ فَرِحٌ مَسْرُورٌ :

إنْ رُحْتَ تلْقَى - مَرَّةً - عَدُوّا ؛
أَحْمَقَ ، يَمْشِي تائِهًا مَزْهُوّا ؛
جَبَّارَ غابٍ ، أَنْسِيَ الْحُنُوّا ؛
وَأُلْهِمَ الْقَسْوَةَ وَالْعُتُوّا ؛
كَأَنَّهُ اللَّيْثُ إذا تَقَوَّى ؛
جَلْجَلَ ، مِثْلَ الرَّعْدِ ، حِينَ دَوَّى ؛
وَعَوْةِ الذِّئْبِ ، إذا تَلَوَّى ؛
كالأُفْعُوانِ الْتَفَّ أَوْ تَحَوَّى :

* * *

فَكُنْ لَهُ - مِنْ زَهْوِهِ - شِفاءْ !
وَكُنْ لَهُ - مِنْ دائِهِ - دَواءْ !
وَأَنْهِ عُمْرَ الْمُعْتَدِي ، إنْهاءْ !
واقْضِ عَلَى حَياتِهِ قَضاءْ !
واجْلُبْ لَهُ الْمِحْنَةَ والشَّقاءْ !
واسْتَلْهِمِ الْحِدَّةَ والْمَضاءْ !
بِشِكَّةٍ تَنْتَظِمُ الأَحْشاءْ !
وَطَعْنَةٍ - فِي قَلْبِهِ - نَجْلاءْ !
تَتْرُكُهُ مُمَزَّقًا أَشْلاءْ !

٦ — وَساوِسُ الْعُزْلَةِ

ما كادَتِ الشَّمْسُ تُحَيِّي الْكَوْنَ بِنُورِها ، حَتَّى بَدَأَ الأَخَوانِ رِحْلَتَهُما الْمَنْشُودَةَ ، الَّتِي تَسْتَمِرُّ بِضْعَةَ أَيَّامٍ وَبِضْعَ لَيالٍ .

وَدَّعَ الْأَخَوانِ « لُؤْلُؤَةَ الصَّباحِ » ، وَأَوْصَياها بِأَنْ تَكُونَ عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّهِما ، فِي السُّلُوكِ الَّذِي تَتَّبِعُهُ فِي أَثْناءِ غَيْبَتِهِما .

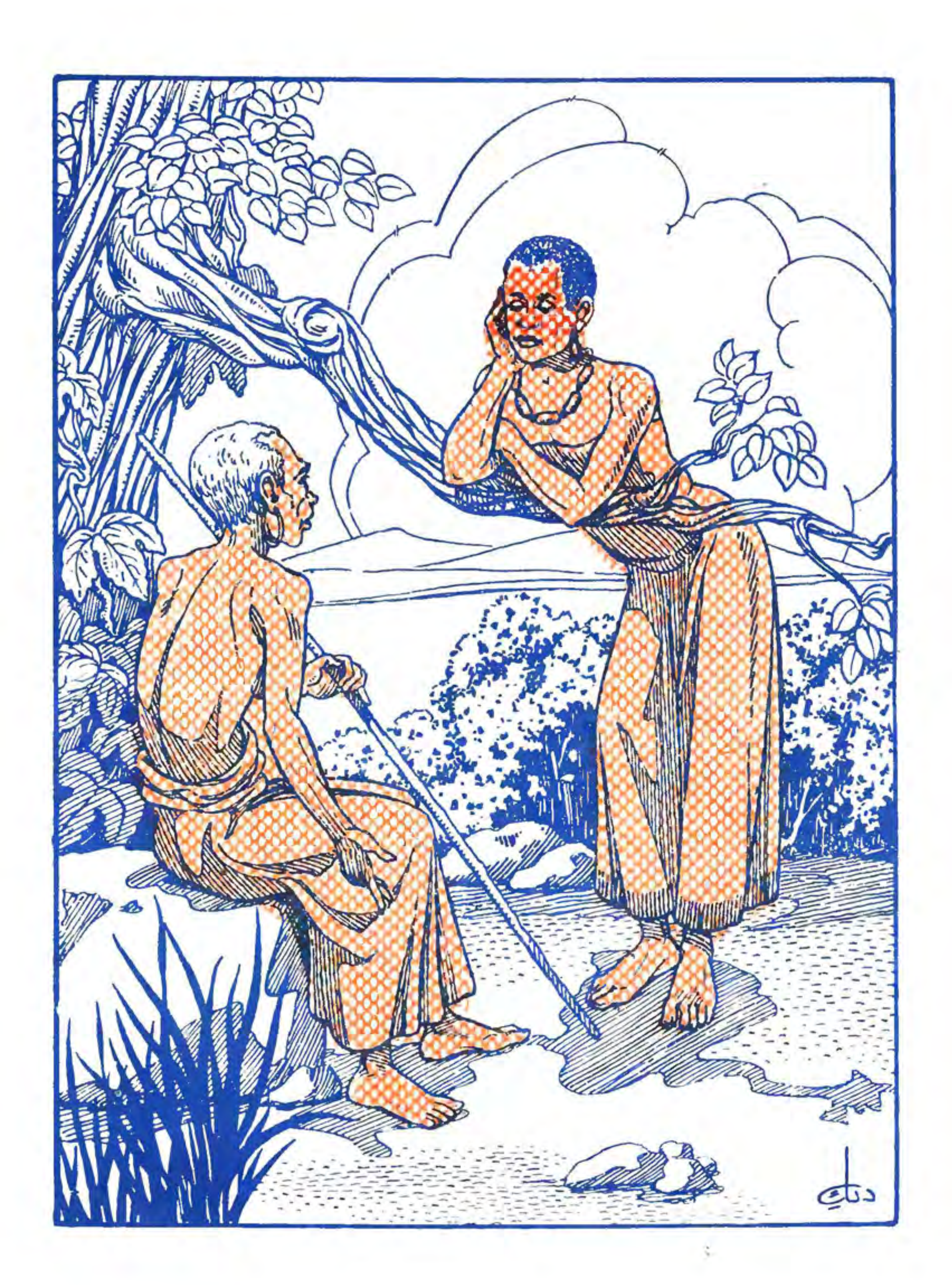
وَمَضَى الْيَوْمُ الْأَوَّلُ ، وَ« لُؤْلُؤَةُ الصَّباحِ » وَحِيدَةٌ فِي الْكُوخِ .. وَما لَبِثَتْ أَنْ ضَجِرَتْ بِالْعُزْلَةِ ، وَأَصْبَحَتْ كاسِفَةَ الْبالِ .

وَفِي صُبْحِ الْيَوْمِ التَّالِي ، أَخَذَتْ « لُؤْلُؤَةُ الصَّباحِ » تُفَكِّرُ فِي حِكايَةِ النَّهْرِ الْفِضِّيِّ ، الَّذِي يَجْعَلُ السَّمْراءَ بَيْضاءَ ، مَتَى عَبَرَتْهُ !

لَقَدْ أَكَّدَتْهُ لَها « أُمُّ جَعْفَرٍ » ، وَهِيَ خَبِيرَةٌ بِالْحَياةِ ، وَقَدْ عَرَفَتْ فِي عُمْرِها الطَّوِيلِ ما لا يَعْرِفُهُ غَيْرُها مِنَ الشَّبابِ . فَإِنَّ الشَّبابَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْحَياةِ إِلَّا تَجارِبُ مَحْدُودَةٌ .

ماذا يَدْعُو « أُمَّ جَعْفَرٍ » إِلَى أَنْ تَكْذِبَ عَلَيْها ، وَتَقُصَّ عَلَيْها قِصَّةً خُرافِيَّةً لا أَصْلَ لَها ؟ وَكَيْفَ لا تَكُونُ صادِقَةً فِي قِصَّتِها ، وَهِيَ تَعْلَمُ أَنَّ كَذِبَها مَفْضُوحٌ بَعْدَ حِينٍ ؟

اِسْتَوْلَتْ هٰذِهِ الْوَساوِسُ عَلَى نَفْسِ « لُؤْلُؤَةِ الصَّباحِ » ؛ فَاسْتَقَرَّ رَأْيُها عَلَى أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْكُوخِ ، وَتَذْهَبَ لِلِقاءِ « أُمِّ جَعْفَرٍ » .



٧ — عِنْدَ « أُمِّ جَعْفَرٍ »

ذَهَبَتْ « لُؤْلُؤَةُ الصَّباحِ » إِلَى حَيْثُ تُقِيمُ « أُمُّ جَعْفَرٍ » الْعَجُوزُ .
اسْتَقْبَلَتْها الْعَجُوزُ بِحَفاوَةٍ ، وَرَحَّبَتْ بِحُضُورِها أَجْمَلَ تَرْحِيبٍ .
قالَتْ لَها « لُؤْلُؤَةُ الصَّباحِ » : « لَقَدْ حَضَرْتُ إِلَيْكِ ، لِأَسْتَوْضِحَ مِنْكِ شَأْنَ « النَّهْرِ الْفِضِّيِّ » الَّذِي حَدَّثْتِنِي عَنْهُ ، وَشَوَّقْتِنِي إِلَيْهِ . »

قالَتْ لَها « أُمُّ جَعْفَرٍ » : « إِنَّهُ يا بُنَيَّتِي ، نَهْرٌ بَعِيدٌ ، يَجْرِي وَراءَ تِلْكَ الْغابَةِ الْكَبِيرَةِ الْفَسِيحَةِ ! وَقَدْ وَصَلَ إِلَيْهِ أُناسٌ كَثِيرُونَ ، وَهُمْ سُمْرُ الْأَجْسامِ ، مِثْلِي وَمِثْلُكِ .. فَلَمَّا اغْتَسَلُوا فِي مائِهِ ، أَصْبَحُوا – مِنْ بَعْدُ – بِيضًا ، وَزالَ عَنْهُمْ لَوْنُهُمُ الْأَسْمَرُ . »

قالَتْ لَها الْفَتاةُ : « مِنْ أَيْنَ عَلِمْتِ بِهٰذا النَّهْرِ ، يا أُمَّاهُ ؟ هَلْ رَأَيْتِ النَّاسَ الْبِيضَ الَّذِينَ مَرُّوا بِهِ ، واغْتَسَلُوا فِي مائِهِ ؟ »

قالَتْ لَها « أُمُّ جَعْفَرٍ » : « لا أَكْذِبُ عَلَيْكِ يا بِنْتاهُ . لَمْ أَرَ « النَّهْرَ الْفِضِّيَّ » ، وَلَمْ أَلْتَقِ بِمَنْ وَصَلَ إِلَيْه .. لَقَدْ سَمِعْتُ بِهٰذِهِ الْقِصَّةِ مِنْ « فارِسِ الْغابَةِ » الْمُقِيمِ فِي مَكانٍ قَرِيبٍ . وَطالَما حاوَلَ إِقْناعِي بِالذَّهابِ مَعَهُ إِلَى النَّهْرِ ، فَلَمْ أُوافِقْ ، لِأَنِّي لا أُرِيدُ تَغْيِيرَ لَوْنِي . »

عَزَمَتْ « لُؤْلُؤَةُ الصَّباحِ » عَلَى أَنْ تَبْحَثَ عَنْ « فارِسِ الْغابَةِ » ، لِكَيْ يُحَقِّقَ حُلْمَها فِي الْوُصُولِ إِلَى « النَّهْرِ الْفِضِّيِّ » الْعَظِيمِ !

٨ — عِنْدَ « فارِسِ الْغابَةِ »

خَرَجَتْ « لُؤْلُؤَةُ الصَّباحِ » مِنْ عِنْدِ « أُمِّ جَعْفَرٍ » ، قاصِدَةً الْمَكانَ الَّذِي وَصَفَتْهُ لَها ، حَتَّى تَلْقَى فِيهِ « فارِسَ الْغابَةِ » ، الْخَبِيرَ بِمَوْقِعِ « النَّهْرِ الْفِضِّيِّ » الْعَجِيبِ ، لِكَىْ يَدُلَّها عَلَيْهِ .

بَعْدَ سَيْرٍ طَوِيلٍ ، بَيْنَ الْأَشْجارِ الْعالِيَةِ ، والْأَعْشابِ الْكَثِيفَةِ ، سَمِعَتْ صَوْتًا يَقُولُ : « مَنْ ذٰلِكَ الَّذِي يَمْشِي فِي أَرْضِي ؟ »

صاحَتْ « لُؤْلُؤَةُ الصَّباحِ » : « إِنْ كُنْتَ « فارِسَ الْغابَةِ » ؛ فَأَنا أُرِيدُ أَنْ أَلْقاكَ ، لِأَتَحَدَّثَ إِلَيْكَ فِي شَأْنِ « النَّهْرِ الْفِضِّيِّ » . »

بَرَزَ لَها « فارِسُ الْغابَةِ » ، فَإِذا هُوَ رَجُلٌ فارِعُ الْقامَةِ ، مَتِينُ الْعَضَلاتِ ، عَلَيْهِ دَلائِلُ الْقُوَّةِ !. وَما كادَ يَراها فَتاةً فِي مُقْتَبَلِ الشَّبابِ ، حَتَّى سَرَّهُ مَرْآها ، فاقْتَرَبَ مِنْها وَحَيَّاها .

قالَ لَها : « مَنْ دَلَّكِ عَلَيَّ ؟ وَماذا تَبْغِينَ مِنَ النَّهْرِ الْفِضِّيِّ ؟ »

أَخْبَرَتْهُ بِما دارَ مِنْ حَدِيثٍ بَيْنَها وَبَيْنَ الْعَجُوزِ « أُمِّ جَعْفَرٍ » ، وَأَنَّها دَلَّتْها عَلَيْهِ .. وَأَبْدَتْ لَهُ رَغْبَتَها فِي أَنْ يَصِلَ بِها إِلَى « النَّهْرِ الْفِضِّيِّ » ، لِتَعْبُرَهُ ، وَتَغْتَسِلَ فِيهِ ، حَتَّى تَعُودَ بَيْضاءَ .

هَزَّ « فارِسُ الْغابَةِ » رَأْسَهُ لِلْفَتاةِ ، وَأَبْدَى لَها أَنَّهُ مُسْتَعِدٌّ لِتَحْقِيقِ ما رَغِبَتْ فِيهِ ، عَنْ سَماحَةِ نَفْسٍ ، وَطِيبِ خاطِرٍ .

٩ – شُرُوطُ « فارِسِ الْغابَةِ »

جَلَسَتْ « لُؤْلُؤَةُ الصَّباحِ » تَسْتَرِيحُ فِي كُوخِ « فارِسِ الْغابَةِ »، وَقَدِ اخْتارَهُ فِي أَرْضٍ طَيِّبَةٍ ، تَكْسُوها الْأَزْهارُ النَّضِرَةُ .

بَعْدَ قَلِيلٍ ، أَقْبَلَ عَلَيْها ، يَقُولُ لَها : « ما اسْمُكِ ؟ »

أَجابَتْهُ عَلَى الْفَوْرِ ، فِي غَيْرِ تَرَدُّدٍ : « اِسْمِي : لُؤْلُؤَةُ الصَّباحِ »

قالَ لَها : « كَيْفَ تَرَيْنَنِي فِي نَظَرِكِ ، أَيَّتُها الْفَتاةُ الطَّيِّبَةُ ؟ »

قالَتْ لَهُ : « لَقَدْ أَحْسَنْتَ اسْتِقْبالِي ، وَرَحَّبْتَ بِطَلِبَتِي . . وَهٰذا يَدُلُّ عَلَى أَنَّكَ رَجُلٌ كَرِيمُ الْخُلُقِ ، حَسَنُ الْمُعامَلَةِ . »

قالَ لَها : « هَلْ تُمانِعِينَ فِي أَنْ أَكُونَ زَوْجًا لَكِ إِذَنْ ؟ »

قالَتْ لَهُ : « لَقَدْ جِئْتُكَ لِتَصِلَ بِي إِلَى النَّهْرِ الْفِضِّيِّ . »

قالَ لَها : « إِنِّي أَخْطُبُكِ إِلَى نَفْسِكِ ، لِكَيْ أُحَقِّقَ لَكِ كُلَّ ما تَرْغَبِينَ فِيهِ ، دُونَ أَنْ أَعْصِيَ لَكِ أَمْرًا . »

قالَتْ لَهُ : « الْحَدِيثُ فِي أَمْرِ الزَّواجِ مَوْقُوفٌ عَلَى مُوافَقَةِ أَخَوَيَّ : « مَرْجانَ » وَ « كَهْرَمانَ » . أَلا تَعْرِفُهُما ؟ »

قالَ لَها : « لَمْ أَسْمَعْ بِاسْمِهِما مِنْ قَبْلُ ، وَلَعَلِّي رَأَيْتُهُما . »

قالَتْ لَهُ : « نُؤَجِّلُ الْكَلامَ فِي مَوْضُوعِ الزَّواجِ ، حَتَّى نَلْقَى أَخَوَيَّ ؛ وَأَرْجُو مِنْكَ أَلَّا تُحَدِّثَنِي فِي هٰذا الْمَوْضُوعِ بَعْدَ الْآنَ . »



١٠ - الطَّاهِيَةُ الْماهِرَةُ

لَمْ يَجِدْ « فارِسُ الْغابَةِ » بُدًّا مِنَ الْإِذْعانِ لِقَوْلِ « لُؤْلُؤَةِ الصَّباحِ » . رَأَى أَلَّا يُفاتِحَها مِنْ بَعْدُ فِي مَوْضوعِ الزَّواجِ ، مُكْتَفِيًا مِنْها بِأَنَّها تَعيشُ فِي كُوخِهِ ، وَتَقومُ بِخِدْمَتِهِ ، وَتُهَيِّئُ لَهُ عِيشَةً راضِيَةً . كانَتْ « لُؤْلُؤَةُ الصَّباحِ » طاهِيَةً ماهِرَةً ، فَكانَ « فارِسُ الْغابَةِ » يَخْرُجُ - كُلَّ يَوْمٍ - يَصْطادُ ما يَتَقَوَّتُ بِهِ : مِنَ النَّهْرِ سَمَكًا ، وَمِنَ الْغابَةِ أَرْنَبًا بَرِّيًّا ، أَوْ غَزالًا ، أَوْ ظَبْيَةً .

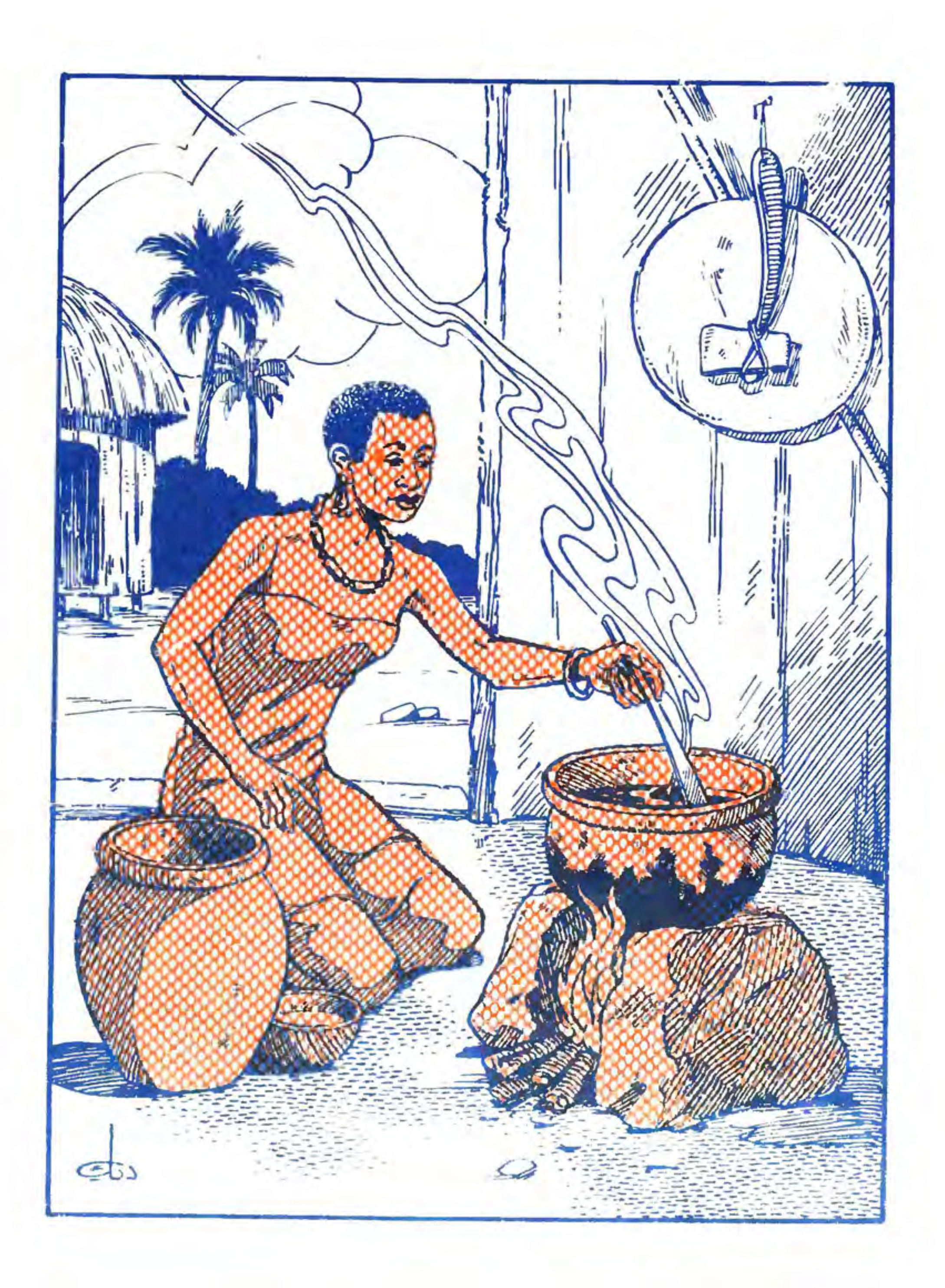
لَقَدْ اسْتَمْتَعَ « فارِسُ الْغابَةِ » بِطَعامٍ لَمْ يَسْتَمْتِعْ بِهِ فِيما مَضَى مِنْ عُمْرِهِ . إِذْ كانَتْ « لُؤْلُؤَةُ الصَّباحِ » تَتَفَنَّنُ فِي طَهْيِ ما يُحْضِرُهُ لَها مِنَ الصَّيْدِ ، لِكَيْ يَكُونَ شَهِيَّ الْمَذاقِ .

وَمَضَتْ عَلَى ذٰلِكَ أَيّامٌ ، وَكُلَّما سَأَلَتْ « لُؤْلُؤَةُ الصَّباحِ » :

« مَتَى نَبْدَأُ رِحْلَتَنا إِلَى « النَّهْرِ الْفِضِّيِّ » يا « فارِسَ الْغابَةِ » ؟ »

أَجابَها بِقَوْلِهِ : « النَّهْرُ الْفِضِّيُّ لا يَكُونُ فِضِّيًّا يُعْطِي سِحْرَهُ الْعَجِيبَ ، لِمَنْ يَعْبُرُهُ وَيَغْتَسِلُ فِيهِ ، إِلَّا حِينَ يَكْسُوهُ ضَوْءُ الْقَمَرِ لَيْلَةَ التَّمامِ . وَسَيَحِينُ مَوْعِدُها . فَلا تَعْجَلِي ! » .

فَلا تَمْلِكُ « لُؤْلُؤَةُ الصَّباحِ » إِلَّا الانْتِظارَ ، عَلَى مَضَضٍ ؛ وَهِيَ تَأْمُلُ أَنْ يَمُنَّ اللهُ عَلَيْها مِنْ فَضْلِهِ بِالْفَرَجِ الْقَرِيبِ ...



١١ – قَلَقُ « لُؤْلُؤَةِ الصَّباحِ »

تَعَوَّدَ « فارِسُ الْغابَةِ » هٰذِهِ الْحَياةَ الْجَدِيدَةَ ، الَّتِي يَحْياها فِي صُحْبَةِ الْفَتاةِ الْوَدِيعَةِ « لُؤْلُؤَةِ الصَّباحِ » ..

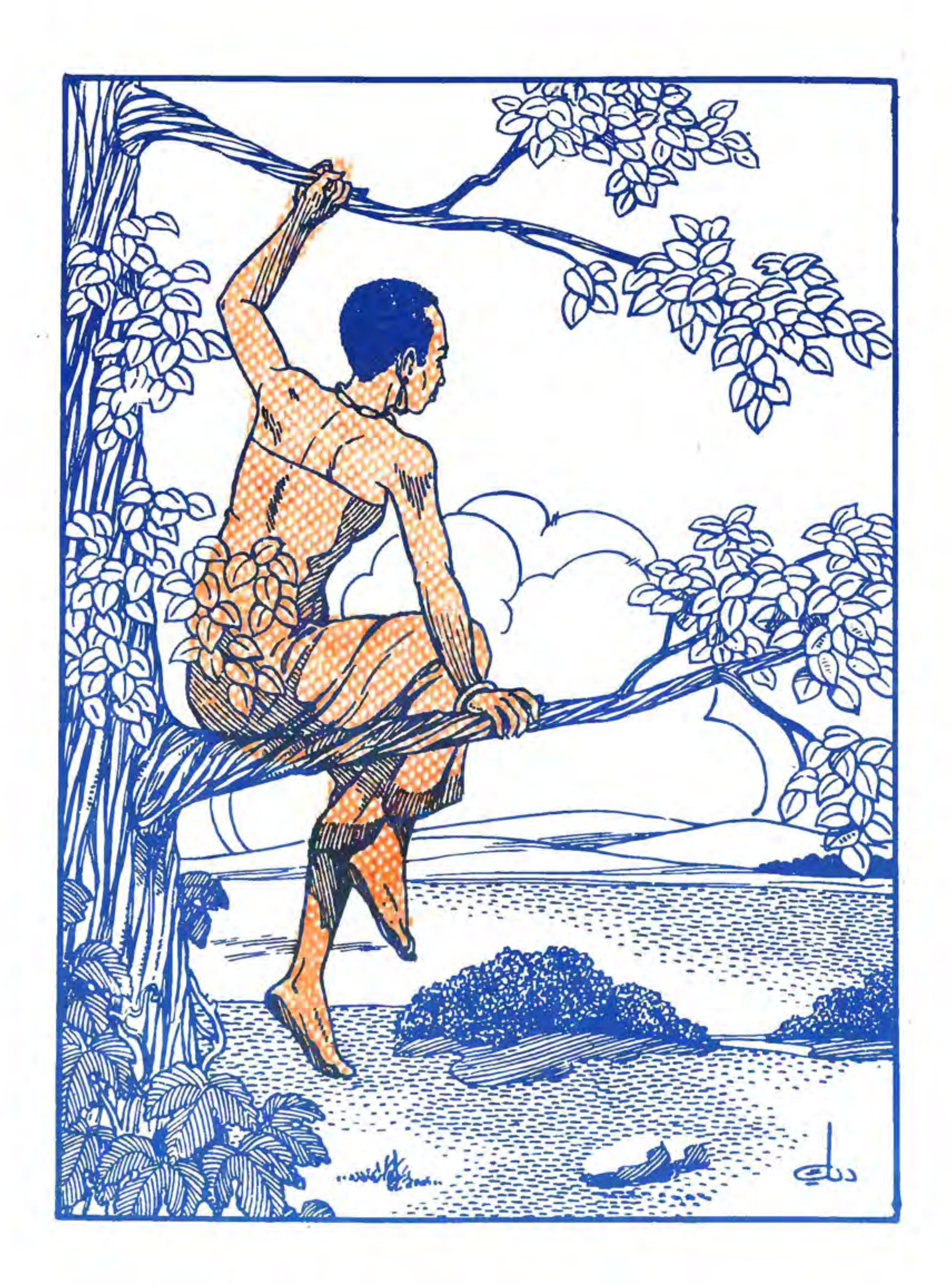
يَخْرُجُ صَباحَ كُلِّ يَوْمٍ لِيَصْطادَ الْغِزْلانَ أَوِ الْأَرانِبَ مِنْ مَسارِها فِي السُّهُولِ وَالْأَوْدِيَةِ ، أَوْ يَأْتِيَ مِنْ صَيْدِ النَّهْرِ بِما يَتَيَسَّرُ لَهُ ، لِكَيْ يَنْعَمَ بِهِ طَعامًا شَهِيًّا ، أَنْضَجَتْهُ « لُؤْلُؤَةُ الصَّباحِ » .

أَمَّا هِيَ ، فَكانَتْ تَقْضِي يَوْمَها بَيْنَ إِنْضاجِ الطَّعامِ ، وَرِعايَةِ الْأَزْهارِ ، وَهِيَ مَشْغُولَةُ الذِّهْنِ ، لا تَدْرِي مَصِيرَها !

وَكانَتْ « لُؤْلُؤَةُ الصَّباحِ » تَخْتَلِسُ مِنْ وَقْتِها ساعَةً أَوْ بَعْضَ ساعَةٍ ، لِكَيْ تَخْرُجَ إِلَى الْعَراءِ ، تُجِيلُ بَصَرَها فِي كُلِّ الْأَرْجاءِ ، لَعَلَّها تَجِدُ أَحَدًا يُفَرِّجُ كُرْبَتَها ، أَوْ يَحُلُّ عُقْدَتَها ! .

لَقَدْ أَرْهَقَها التَّفْكِيرُ ، فَشَحَبَ لَوْنُها ، وَهَزَلَ جِسْمُها ، وَبَدا عَلَيْها الْإِعْياءُ . فَلَمْ تَعُدْ تَقْوَى عَلَى مُواصَلَةِ الْعَمَلِ وَالنَّشاطِ ؛ فَتَراخَتْ فِي الْقِيامِ بِما كانَتْ تَقُومُ بِهِ فِي الْكُوخِ ..

وَأَنْكَرَ ذٰلِكَ مِنْها « فارِسُ الْغابَةِ » ، فَحَمَلَها إِلَى شَجَرَةٍ عالِيَةٍ قَرِيبَةٍ مِنَ الْكُوخِ ، وَرَبَطَها بَيْنَ أَغْصانِها ، تَعْذِيبًا لَها !.. وَتَرَكَها قائِلًا : « سَتَرَيْنَ عَذابًا أَشَدَّ ، إِذا لَمْ تُذْعِنِي لِأَمْرِي ! »



١٢ – مَقْدَمُ الأَخَوَيْنِ

لَمَّـا رَجَعَ « مَرْجانُ » وَأَخُوهُ « كَهْرَمانُ » مِنْ رِحْلَتِهِما ، لَمْ يَجِدا أُخْتَهُما « لُؤْلُؤَةَ الصَّباحِ » كَما تَرَكاها فِي الْـكُوخِ ، فَاشْتَدَّتْ دَهْشَتُهُما ، وَمَلَأَ الذُّعْرُ قَلْبَهُما ! وَما أَسْرَعَ أَنْ تَذَكَّرا حَديثَ « لُؤْلُؤَةِ الصَّباحِ » عَنِ « النَّهْرِ الْفِضِّيِّ » ، وَما قالَتْهُ لَها « أُمُّ جَعْفَرٍ » فِي شَـأْنِ ذٰلِكَ النَّهْرِ . فَذَهَبا عَلَى الْفَوْرِ إِلَى كُوخِها ؛ فَأَقْسَمَتِ الْعَجُوزُ لِلْأَخَوَيْنِ أَنَّها لا تَعْرِفُ مَصيرَ « لُؤْلُؤَةِ الصَّباحِ » ، وَكُلُّ ما تَعْلَمُهُ أَنَّها خَرَجَتْ تَبْحَثُ عَنْ « فارِسِ الْغابَةِ » ، لِيُمَـكِّنَها مِنَ الْوُصُولِ إِلَى « النَّهْرِ الْفِضِّيِّ » .

وَما زالَ الْأَخَوانِ ، يَطْوِيانِ أَرْضَ الْغابَةِ ، وَيَجُوسانِ خِلالَ أَشْجارِها ، وَيَنْفُذانِ ، هُنا وَهُنالِكَ إِلَى مَسارِبِها ، حَتَّى سَمِعَ « مَرْجانُ » أَنِينًا عَلَى بُعْدٍ ، فَتَبَيَّنَ فِيهِ صَوْتَ أُخْتِهِ « لُؤْلُؤَةِ الصَّباحِ » .

سارَعَ الْأَخَوانِ يَجْرِيانِ عَلَى هُدَى ذٰلِكَ الصَّوْتِ ، حَتَّى رَأَتْهُما « لُؤْلُؤَةَ الصَّباحِ » ، وَهِيَ مُعَلَّقَةٌ فِي أَغْصانِ الشَّجَرَةِ الْعالِيَةِ .

ما كادَتْ « لُؤْلُؤَةُ الصَّباحِ » تَلْقاهُما ، حَتَّى الْتَقَطَتْ أَنْفاسَها ، وَكانَتْ عَلَى وَشْكِ الِاخْتِناقِ !.. وَلَمْ يَشْغَلا أَنْفُسَهُما بِسُؤالِها عَمَّا جَرَى لَها ، بَلْ كانَ شُغْلُهُما إِنْقاذَها مِمَّا هِيَ فِيهِ مِنْ عَذابٍ .

١٣ – نَشِيدُ الصَّخْرِ

تابَعَتِ الْأُسْرَةُ سَيْرَها ، مُتَّخِذَةً طَرِيقًا غَيْرَ الطَّرِيقِ الْمَأْلُوفِ ، لِكَىْ تَنْجُوَ مِنَ الْهُجُومِ وَالْعُدْوانِ ، وَتَبْلُغَ أَرْضَها فِى أَمانٍ .

وَكانَ الطَّرِيقُ الَّذِى اخْتارَتْهُ الْأُسْرَةُ مُلْتَوِيًا ضَيِّقًا ، مَمْلُوءًا بِالصُّخُورِ الضِّخامِ ، وَالْأَحْجارِ الْكِبارِ . وَلَمْ تَكُنِ الْأُسْرَةُ تَعْرِفُ : أَيْنَ يَنْتَهِى بِها ذٰلِكَ الطَّرِيقُ ؟ إِلَّا أَنَّها لَمْ تَجِدْ غَيْرَهُ وَسِيلَةً لِلْخَلاصِ .

وَهُنالِكَ وَقَفَ « مَرْجانُ » يَتَرَنَّمُ بِنَشِيدِ الصَّخْرِ ، حَتَّى يَجِدَ فِيهِ هُوَ وَأَخُوهُ وَأُخْتُهُ أُنْسًا ، وَهُمْ يَسِيرُونَ :

« لُؤْلُؤَةُ الصَّباحِ » جاءَتْ شاكِيَهْ
إِلَيْكَ ، يا صَخْرَ الْجِبالِ الْعالِيَهْ
صارِخَةً مِنَ الزَّمانِ باكِيَهْ
وَهْىَ تُرَجِّى – فِى حِماكَ – الْعافِيَهْ

* * *

أَقْسَمْتُ – يا صَخْرَ الْجِبالِ الْعالِيَهْ – :
عَلَيْكَ : بِالْأَزْهارِ ، وَهْىَ نامِيَهْ ؛
وَبِالطُّيُورِ – فِى الْغُصُونِ – شادِيَهْ .

* * *

أقسَمْتُ - يا صَخْرَ الْجِبالِ الْعالِيَهْ - :
بِالزَّهْرِ وَالرَّيْحانِ ، فَوْقَ الرَّابِيَهْ ،
وَحَوْلَ أَنْهارِ الْمُرُوجِ الصَّافِيَهْ .

* * *

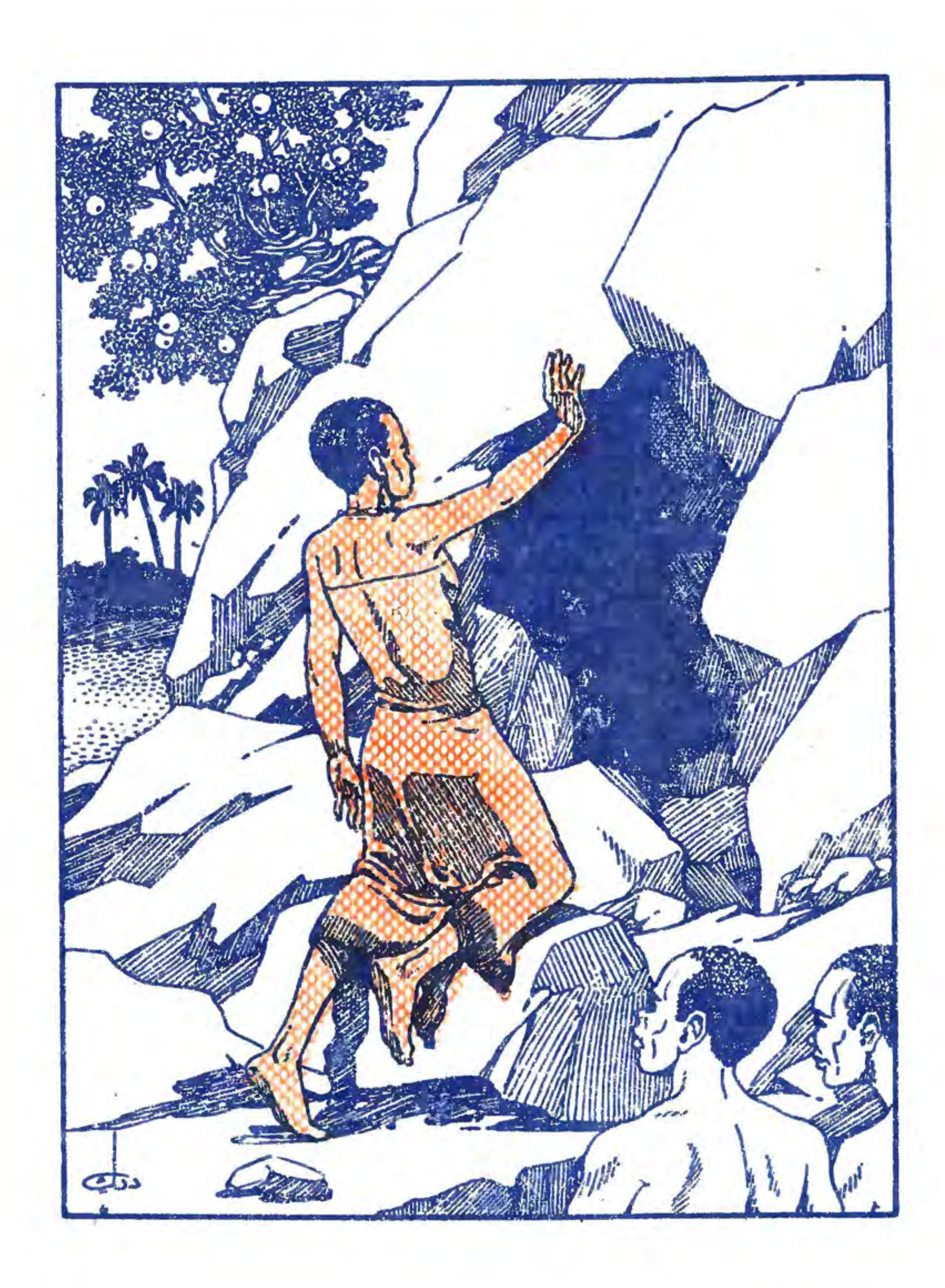
أقسَمْتُ - يا صَخْرَ الْجِبالِ الْعالِيَهْ - :
بِالْكَرْمِ ، يُزْهَى بِالْقُطُوفِ الدَّانِيَهْ ،
وَ بِالْوُرُودِ ، فِي الرِّياضِ الْحالِيَهْ ،
رَتَّلَ فِيها بُلْبُلٌ أغانِيَهْ .

* * *

أقسَمْتُ - يا صَخْرَ الْجِبالِ الْعالِيَهْ - :
بِالْبَدْرِ ، يَجْلُو الظُّلُماتِ الدَّاجِيَهْ ،
مُنَوِّرًا ، بَيْنَ النُّجُومِ الزَّاهِيَهْ .

* * *

أقسَمْتُ - يا صَخْرَ الْجِبالِ الْعالِيَهْ - :
أَنْ تَقْهَرَ الْخَصْمَ الَّذِي وَرائِيَهْ ،
وَتَفْتَحَ الصَّخْرَ الَّذِي أمامِيَهْ ،
لَعَلَّنا نَبْلُغُ تِلْكَ النَّاحِيَهْ ،
فِي مَأْمَنٍ مِنَ الْخُطُوبِ الْعادِيَهْ ! »



١٤ – بَياضُ الْقُلُوبِ

تابَعَ الأَخَوانِ «مَرْجانُ» وَ «كَهْرَمانُ» سَيْرَهُما ، وَمَعَهُما أُخْتُهُما «لُؤْلُؤَةُ الصَّباحِ» ، إِلَى مَوْطِنِهِمُ الْعَزِيزِ .. فَجَلَسَ الأَخَوانِ مَعَها ، يَسْتَوضِحانِها ما حَدَثَ لَها ، بَعْدَ غَيْبَتِهِما فِي رِحْلَةِ الصَّيْدِ .

فَلَمْ تُخْفِ عَنْهُما شَيْئًا ، وكانَتْ صادِقَةً فِي حِكايَةِ ما جَرَى ، مُعْتَرِفَةً بِأَنَّها أَخْطَأَتْ فِيما أَقْدَمَتْ عَلَيْهِ ، نادِمَةً عَلَى ما فَعَلَتْ أَشَدَّ النَّدَمِ ، مُعْتَزِمَةً أَلَّا تَعُودَ إِلَى مِثْلِ هٰذا الْخَطَإِ مَرَّةً أُخْرَى ..

وَلٰكِنَّها مَعَ ذٰلِكَ قالَتْ لِأَخَوَيْها : «لا بُدَّ لَنا مِنَ الْبَحْثِ عَنِ «النَّهْرِ الْفِضِّيِّ» الَّذِي نَغْتَسِلُ فِيهِ ، لِنُصْبِحَ فِي عِدادِ الْبِيضِ ! » .

فَبادَرَ أَخُوها «مَرْجانُ» يَقُولُ لَها : «ماذا يَعِيبُكِ يا أُخْتاهُ ، إِذا لَمْ تَكُونِي بَيْضاءَ ؟ لَيْسَ فِي بَياضِ اللَّوْنِ شَرَفٌ لِلإِنْسانِ . إِنَّما الشَّرَفُ الرَّفِيعُ بَياضُ الْقَلْبِ ، وَصَفاءُ النَّفْسِ ، وَجَمالُ الْخُلُقِ ! »

وَقالَ لَها «كَهْرَمانُ» : «لا تَشْغَلِي بالَكِ بِالْخُرافاتِ ، ولا تُلْقِي سَمْعَكِ لِلأَوْهامِ .. لَقَدْ أَخْطَأْتِ حَقًّا ، وَلٰكِنَّكِ حَفِظْتِ كَرامَتَكِ ، وَكُتِبَتْ لَكِ السَّلامَةُ وَالنَّجاةُ ، وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ . »

وَلَمْ تَعُدْ «لُؤْلُؤَةُ الصَّباحِ» – فِيما بَعْدَ ذٰلِكَ – تَبْحَثُ عَنِ النَّهْرِ الْخُرافِيِّ الْمَوْهُومِ ، الَّذِي يُحِيلُ سَوادَ الأَجْسامِ إِلَى بَياضٍ !..

(تمت القصة)

(يُجابُ ممّا في هذه الحكايةِ عن الأسئلة الآتيةِ)

١ ـ أين كانت تقيم أسرةُ « لؤلؤة الصّباح » ؟
ولماذا لم يكن يمرُّ بتلك البُقعة إلا قليلٌ من الناس ؟

٢ ـ لماذا أحبّت « لؤلؤةُ الصّباحِ » الأرضَ التى وُلدت فيها ؟

٣ ـ متى كان الأخوان « مَرْجانٌ » و « كَهْرَمانٌ » يخرُجان للصيد والقنْص ؟
وماذا دار بين « لؤلؤةِ الصّباح » وأخويْها ، وهما يعْتزمان القيامَ برِحلة ؟

٤ ـ ما هى القصّة التى تحدّثت بها « أمُّ جعفرٍ » إلى « لؤلؤة الصباح » ؟

٥ ـ كيف أقنع الأخوانِ « لؤلؤةَ الصّباحِ » بالعُدولِ عن الرَّغبةِ فى مُرافقتِهما ؟
وماذا كانت عادةُ « مَرْجان » حين يتأهّب للصيد ؟

٦ ـ ماذا كان شُعورُ الفتاة بعد سَفَرِ أخويْها ؟ وعلى أىِّ شىءٍ استقرَّ رأيُها ؟

٧ ـ من أين علمت « أمُّ جعفرٍ » بقِصّة « النّهرِ الفضّىِّ » ؟

٨ ـ ماذا طلبت « لؤلؤةُ الصّباحِ » من « فارسِ الغابة » ؟

٩ ـ ماذا طلبَ « فارسُ الغابة » من « لؤلؤة الصّباح » ؟ وبماذا أجابتْه ؟

١٠ ـ ما هى العيشةُ الرّاضيَةُ التى هيّأتها « لؤلؤةُ الصّباحِ » لـ « فارسِ الغابة » ؟
وماذا كان يُجيب « فارسُ الغابة » إذا سألته عن موْعِدِ بَدْءِ الرِّحلة ؟

١١ ـ كيف كانت حالُ الفتاة بعد أن طالَ انْتِظارُها ؟ وماذا صنَع بها «فارسُ الغابة» ؟

١٢ ـ أين ذهب الأخَوانِ حين رجَعا فلم يجدا أختَهما ؟ وماذا فعَلا بعد ذلك ؟

١٣ ـ كيف كان طريقُ الأسْرة للعودة ؟ وما اسمُ النشيد الذى تغنّى به «مَرْجانٌ» ؟

١٤ ـ كيف اقتنعت « لؤلؤةُ الصّباحِ » بخَطَئِها حين رغِبَتْ فى تغيير لوْنِها ؟

(رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٧/٩١١٥)

أَساطِيرُ إِفْرِيقِيَّة

كامل كيلانى



مطبعة الكيلانى بالقاهرة
٢٢ شارع غيط العدة - باب الخلق